

العنف الديني من منظور

علم النفس

الملخص

أصبح الإشكال الرئيسي الذي يواجهه الباحث عند تعرّضه لقضايا العنف الديني هو صعوبة الفصل بين مفهوم العنف كأسلوب أو كمدلول ، ذلك لأنّه قد يكون العنف الديني مقبولا أو مرفوضا. وفي ملمح آخر لا يمكن استمرار الربط بين أعمال العنف الديني على طول الخط دون الاهتمام بالخصائص العقلية والانفعالية للمتورطين فيها لأنّ في ذلك مخالفة لموضوعية الدراسة. ولذا فلاهتمام بالمفاهيم المستخدمة في أي دراسة أمر يشكل أحد ركائزها. إذن فموضوع تحديد المفاهيم وتحليل أبعادها والفصل بين التشابهات منها أمر ضروري.

اختلف الباحثون حول تحديد مفهوم العنف الديني ويرجع هذا الاختلاف إلى تنوّع إيديولوجياتهم ومصالحهم ، وإنّ جميع الأديان السماوية بل وأغلب الديانات الوضعية تدعو إلى التوسط وترفض العنف الديني الذي يتحقّق داخل مؤسسات المجتمع فقد يمارس داخل الأسرة والعمل والمدرسة والمؤسسات التنظيمية.

إنّ هناك علاقة جدلية بين العنف الديني وبين علم النفس ، فالوصول إلى حلول لهذه القضية يتطلب فهما عميقا وواسعا للشخصية الإنسانية وللنفس البشرية في بنائها وتنظيمها ووظائفها وعلاقتها المتشابكة ذلك لأنّ هناك بعض التوجهات تفيد بأنّ هناك ممارسات للعنف الديني تتبنّاها فئة قليلة لأهداف شخصية ، وقد يكون مصابا ببعض الأمراض النفسية أو العقلية أو الخلل العضوي بشكل عام مثل الوسواس القهري وجنون

العظمة بشكل خاص. والمشكلة لا تكمن في وجود هذه القلة إنما في كيفية نقل الأفكار لمجموعات الشباب وتجنيدهم للممارسة أعمال العنف ، وقد يكون من بين هؤلاء شباب وأطفال ، وهنا نتساءل ما العوامل التي تدفع هؤلاء لتبني هذه الأفكار والممارسات الإجرامية.

وهنا نعرض اتجاهين :

- الاتجاه الأول ويرى أنصاره أنّ من طبيعة الإنسان السوي المتدين أن يكون معتدلاً في كل شأن من حياته وتفكيره ، ومن ثمّ ينعكس على سلوكه ، أمّا الإنسان غير السوي الذي يمارس العنف فهو قد نشأ في ظروف غير طبيعية بحيث تترك في حياته عقد نفسية مزمنة أو قد تحدث له عند معاناته من إحباطات شديدة بشكل مستمر أو تحتاحه مشاعر الكراهية.

والعدوان تجاه الآخرين نتيجة لطفولته التعيسة أو نشأته المتذبذبة أو المدللة تلك الحالات المتناقضة تجعل المرء يستعين ببعض الميكانزمات الدفاعية النفسية حتى يحمي ذاته من تلك المشاعر ، فيتخذ الفردانية الدينية كستر لأعماله وأفكاره وتصرفاته ويجد فيه حامياً من المجتمع. والعنف الديني لا يظهر إلا نادراً من المتعلمين والمثقفين ، أمّا غالبية القائمين به فمن أنصاف المتعلمين ومشكلة نصف المتعلمين أنّهم لا يعترفون بجهلهم في بعض الأمور.

- أمّا الاتجاه الثاني فيرى أنصاره بأنّ هناك تكوين ذهني غير طبيعي أي النقص أو المختل أو المريض يطلق عليه اللاعقل ، وقد يكون موجوداً عند الأطفال و/أو لدى أشخاص غير ناضج الإدراك ولدى قلبي الخبرة وضيق الأفق ، وأخطر أنواع اللاعقل هو التكوين الذهني المريض الحظم والذي تنشط فيه بصورة خاطئة فئة من المخطئين أو المشوهين ذهنياً باعتبارهم أخطر فئات اللاعقل والمعادين للحق والخير والصواب بالإضافة إلى هؤلاء تأتي فئة المرضى العقليين الذي يصل نقص التفكير والإدراك إلى درجة الشذوذ .

ليس كل متدين متعصبا أو أنه يسلك سلوكات عنيفة لكن العنف الديني ينطوي على العديد من الدّعائم التي تنمّي وترسخه ومن ثم يصبح أنواعا من الممارسات العنيفة التي تهدد أمن المجتمع تلك الدّعائم تعكس المكونات النفسية المتعلقة بالمتدين نفسه . إن هناك جملة من الخصائص النفسية والشخصية والتركيبية الفعلية التي تدعم خضوع الفرد المتدين الآخر الذي ينمي لديه مجموعة معينة من الأفكار والممارسات.

ومن هذه الخصائص ما نوجزها في النقاط التالية :

- الإحساس بالهامشية أو التهميش ، وهنا تتنازع داخل الفرد دوافع متفاوتة بحيث يقع في صراع نفسي شديد يزيك فيه فقدان الإحساس بالطمأنينة وعدم الأمان وزيادة التوتر مما يجعله يلجأ إلى إصدار إستجابات سلوكية عنيفة.
- الاغتراب ويتمثل في شعور الفرد بالاستياء والتذمر والإحساس بالوحدة والعزلة إلى انفصام الفرد عن ذاته وانعدام الإحساس بالروابط بين كل من الأشياء والأفراد والشعور بالعداء نحوها معاملة غيره من الناس كأشياء مستقلة عن ذاته.
- التصلب وهو انخفاض في درجة التعبير في بناء الشخصية بمعنى قلة الخبرة فكلما تجانس بناء الشخصية ومكوناته المعرفية والمزاجية والاجتماعية قل الرصيد السلوكي للتنوع الذي سيقابل الشخص به متنوعات مواقف الحياة ومقتضيات التوافق والنتيجة النهائية لذلك هي تصلب السلوك.
- الانصياع والخضوع ، وقد يكون من قبل الأشخاص الذين يتسمون بالعجز الذاتي وهو أخطر لكونهم نواة لينة وجاهزة لتشكيل أفكارهم من جهات تستهدف توطيدهم ، فإطاعة العمياء والانصياع التام أساس المشاركة في جماعات تمارس الأعمال العنيفة مما يجعلهم يشعرون بالتفرد كتعويض عن عجزهم ونقصهم.
- الإحباط والمحاكاة والتعصب.

وفي الأخير يصعب على أي فرد لديه اليقين الديني وبملك الوعي الكامل بأمور دينه وعقائده وعباداته أن يقرن بين العنف والدين إلا أن هناك من يحاول صيغة الدين بالعنف من أجل تشويه صور الأديان السماوية.

رغم أن الغيب والمستقبل لا عمله إلا الله عز وجل إلا أن على الباحثين الاجتهاد في رصد تحليل أحداث تمتد جذورها في الماضي لتحديد أسباب ما يحدث في الحاضر ثم توقع ما قد يمكن حدوثه في المستقبل مستخدما في ذلك مؤشرات استقى بعضها من بيانات ومعلومات واقعية والبعض الآخر من أصول تاريخية وسياسية واقتصادية ونفسية واجتماعية تمر في المجتمع وتشكل بنيته الكلية.

وقضية العنف الديني من القضايا التي تترك الرأي العام والمختصين على الرغم من انخفاض حدتها حاليا لاتصالها المباشر بالأفكار المتنامية في عقول الشباب وارتباطها في أغلب الأوقات بديانته وحالته الاقتصادية والنفسية والاجتماعية وقدرته على التكيف مع واقع بيئته.

وإن ظاهرة العنف الديني تستقي ظروفها وأسبابها من بعض ما ورثناه عن الماضي بسلبياته وإيجابياته. وما نتمناه في المستقبل أن نلمح ضوءا إيجابيا يفيد في تبصير طريق الغد إلى الأفضل.

- 1- محمد أحمد بيومي ، ظاهرة التطرف ، الأسباب والعلاج ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1992 ، ص 100.
- 2- إسماعيل إبراهيم ، الشباب بين التطرف والانحراف ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، 1998 ، ص 110.
- 3- وفاء محمد مرعي ، دور الجامعة في مواجهة التطرف الفكري ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2002 ، ص 49، 50، 96-110، 113.
- 4- عزت السيد إسماعيل ، سيكولوجية التطرف والإرهاب ، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت ، 1994 ، ص 15 - 28.
- 5- كمال إبراهيم مرسى ، القلق وعلاقته بالشخصية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1993 ، ص 35 - 38.